نظرات في المدينة العربية الإسلامية
خلال العهدين الأموي والعباسي

الدكتور سليم عبد الحق

نظرات في المدينة العربية الإسلامية
خلال العهدين الأموي والعباسي

د. سليم عبد الحق

أ ــ مقدمة :

تنتشر المدن العربية الإسلامية في رقعة واسعة من العالم ، وتؤلف مراكز سياسية أو عسكرية أو اقتصادية أو دينية أو فنية ، وتختص بخصائص تختلف بين إقليم وإقليم ، وتتطور من عصر إلى عصر . ومنها ما نشأ نشأة عفوية ، واتسع ببطء ، ومنها ما أوجدته إرادة ملك أو أمير ، ونما نمواً سريعاً ، ومنها ما اندثر وتحول إلى خرائب غيبتها الأرض في تضاعيفها ، ومنها ما انحط شأنه لعدم تجاوبه مع مقتضيات زمن من الأزمان ، ثم انبعث تبعاً لشروط أخرى مناسبة ، أمنت له حياة جديدة .

ويقتصر حديثنا في هذا المقام على المدن التي شيّدها أو سكنها وطوَّرها العرب المسلمون في سورية والعراق ومصر وليبيا ، بين القرن الأول الهجري أو السابع الميلادي ، وبين القرن الرابع الهجري أو الحادي عشر الميلادي ، أي في المرحلة الكلاسيكية من حياة المدنية العربية . وبالطبع تختلف هذه المدن بصفات كثيرة عن المدن العربية الابتدائية التي كانت قائمة في الحجاز واليمن قبل الإسلام من جهة ، وعن المدن الإسلامية الأيوبية أو المملوكية أو العثمانية أو المعاصرة من جهة ثانية .

ومرادنا من هذا التخصيص أن نحاول إيضاح الإسهام الذي حمله العرب

المسلمون إلى الحياة المدنية العالمية ، وأن نلقي بعض النور على المبادىء العمرانية التي اتخذوها لإنشاء إطارات حضرية منسجمة مع طبيعة الحياة العسكرية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي صرفوها خلال العهود الأولى الزاهية من تاريخهم العريق .

وأول ما يجب الإلحاح عليه في هذا المضمار ، أن نشوء المدينة العربية الإسلامية الأولى لم يكن تهديماً للمبادىء العمرانية التي قامت عليها المدينة الإغريقية الرومانية ذات المخطط المتعامد ، والتي ورثها العرب عن البيزنطيين ، ولا إفساداً تدريجياً لهذه المبادىء ، كما يزعم عدد من المؤلفين الغربيين . وإنما كان تحويلاً طبيعياً وتحسيناً عملياً لمنجزات مدينة تمت خلال العصور القديمة والقرون الأولى من العصر الوسيط ، وفق معطيات اقتضاها التطور التاريخي الكبير الذي طرأ فيما بعد على حياة الشرق الأوسط وافريقيا الشمالية ، إثر نشوء المجتمع العربي الإسلامي .

وفي الواقع لم تكن المدينة الاغريقية الرومانية غريبة عن حياة العرب قبل الإسلام . فقد نشأ منذ القرن السابع قبل الميلاد عدد من المستوطنات الإغريقية في سورية كمدينة السويدية ، وفي مصر كنقراطين ، وفي ليبيا كقورينا . وتألف بعد حملات الإسكندر الماكدوني على الشرق ، وقيام الدول الهلنستية التي منها المملكتان السلوقية والبطلمية ، عدد لا يحصى من المدن الجديدة أو المدن القديمة التي أصلحت أو أعيد انشاؤها بعد اتباع المخططات المتعامدة المنتظمة التي تشبه رقعة الشطرنج . ومن هذه المدن (سلوقية) على نهر دجلة ، و (دورا أوربوس) القريبة من الفرات ، و(انطاكية) و (أفامية) و (بيروا = حلب) و (ايفانيا = حماة) و (اللاذقية) و (دمشق) و (فيلادلفيا = عمان) في بلاد الرافدين أو في سورية ، و (الاسكندرية) في مصر ، و (طلميثه) و (أبولونيا = سوسه) في ليبيا وغيرها التي اكتسبت خصائص عملية ومرونة هيأتها لأن تكون إطارات مدنية منقطعة النظير لتصريف مختلف

الوظائف والحاجات السياسية والدفاعية والاقتصادية والثقافية ، التي اختص بها الشرق الأدنى وافريقيا الشمالية .

وأثبتت هذه المدن التي قطنها خاصة السكان الأصليون في بلاد الرافدين وسورية ومصر وليبيا ، مقدرتها على التكيف عندما حلّ العصر الروماني الذي طوّر تحصيناتها ووسّع تخطيط جزيراتها السكنية ، وأكمل شبكات الأقنية التي تقود المياه إلى مختلف أحيائها ، وانصرف للتعبير عن سياسة العظمة التي انتهجها الأباطرة ولا سيما أباطرة السلالة السويرية ــ السورية في إنشاء التآليف المعمارية الضخمة كالمعابد الرائعة (التي منها معابد جوبيتر في دمشق وبعلبك ، وبل في تدمر) والمسارح والمدرجات والملاعب والحمامات ، وفي إحاطة هذه التآليف بالشوارع المستقيمة العريضة التي تزينها أقواس الظفر ، ومباني تقاطع الطرق (التيترابيل) وسبل الماء والأروقة المحمولة على عمد ، وتحدها المناظير التي ألفت منها وحدات رائعة ونادرة . ولا بد من الإشارة إلى أن الشوارع ذات الأروقة لم تكن معروفة قبل زمن ازدهار دمشق وتدمر وجرش (جيرازا) وانطاكية . ولم تتزين آنذاك بمثل هذه الأروقة المحمولة على أعمدة ذات ركائز تجعل عليها التماثيل ، أية مدينة رومانية أخرى لا في أوربا ولا في إيطاليا ، وحتى في روما نفسها . وأكبر الظن أن التآليف المذكورة ، وخاصة الشوارع ذات الأعمدة كانت نتيجة من نتائج اشتداد المبادلات الاقتصادية ، ونشوء الأسواق العالمية ، وازدهار تجارة القوافل التي وصلت الشرق بعالم البحر المتوسط والتي صرفتها القبائل العربية .

وعندما تحولت الأمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية بيزنطية مسيحية زاد تأثير الشرق في الحضارة العالمية . وظهر هذا التأثير خاصة في العمارة الدينية ، وتبدى في عدد لا يحصى من الكنائس الرائعة التي بدأت بكنيسة القيامة في القدس التي بناها الأمبراطور قسطنطين وكنيسة الميلاد في بيت لحم التي شيدتها القديسة هيلانة أم الأمبراطور قسطنطين في القرن الرابع ب. م محتذية فيها النموذج البازليكي ذا البهو المركزي والبهوين الجانبيين ، وتبعتها كنائس

سرجيلا ، والرويحة ، وخراب شمس وبراد في شمال سورية ، وكنائس أم الجمال ودير الحف في جنوبها ، وكنائس تمغاد ، وداموس القريطة ، وتابسا وطلميثه وتوكره في افريقيا الشمالية . وعقب هذا الجيل الأول من الكنائس الشرقية الجميلة جيل ثانٍ من الكنائس والأديرة ذات الهياكل والتراكيب المعمارية الرائعة في القرنين الخامس والسادس ب. م ، ومنها كنائس دير سمعان ، وقلعة سمعان ، والأندرين ، وقلب لوزة ، وترمانين ، والرصافة ، وقصر ابن وردان ، وأذرع ، وبصرى ، وغيرها في سورية ، وكنيسة جرش في الأردن ، وكنيستا العذراء ويوحنا المعمدان في القدس ، وعدد كبير من الكنائس والأديرة حول المدائن ، والحيرة ، ونصيبين ، وأورفة ، وديار بكر ، وملاطيا في العراق وشمالي بلاد الرافدين ، وكنائس وأديرة الاسكندرية ودندرة ، وسوهاج ، وهيرموبوليس ، وسقارة ،وجزيرة فيلة ، والكرنك ، وأسوان في مصر ، ثم كنائس سوسة ، ولبدة ، وصبراتا في ليبيا .

ولم يرافق هذا التقدم في العمارة المسيحية تطور في فن عمران المدن التي احتوتها ، ولم يتغير في مخططات هذه المدن إلا بعض القطاعات . وقد زال طابع الوثنية عن منشآتها العامة ، فاندثرت معابدها ، وقامت الكنائس مقامها ، واختفت مسارحها ومدرجاتها ، وضاقت رقعات حماماتها ، وساحاتها العامة (فوروماتهات ج فوروم) وانتشرت في بعضها القصور التي خصصت لحكامها ، وجرت تعديات مختلفة على تخطيط شوارعها وعلى شبكات توزيع وتصريف مياهها .

وليس بالإمكان معرفة مدى هذه التغيرات في المدن التي ما زالت تسكن حتى الآن كدمشق وحلب واللاذقية وحماة ، وبيروت والاسكندرية ، وطرابلس التي ولا شك جابهت مثل المشاكل المشار إليها . وقد زادت هذه المشاكل حدة بسبب قيام المنازعات الدينية بين رجال الدين المسيحي في مصر وسورية من جهة ،وبين بطريرك القسطنطينية من جهة ثانية حول العقائد المسيحية ولاضطرار كثير من الكهنة المصريين والسوريين لمفارقة المدن وبناء الصوامع والأديرة

خارجها، وكذلك بسبب الحروب الطاحنة التي قامت في القرن السادس وأول القرن السابع ب. م بين الأمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، واستيلاء الفرس على عدد من المدن السورية وتهديمهم لمنشآتها .

ويتبين مما ذكر أن العرب المسلمين لم يتلقوا من الماضي البيزنطي مدناً عامرة منسجمة مع حياة عصرها ، بل ورثوا إطارات مدينة انحطت في تآليفها المبادىء العمرانية الكلاسيكية ، وما عادت متفقة مع عادات السكان . وأنه إذا كانت نقطة انطلاق المدينة العربية الاسلامية ما يسمى بالمدينة الاغريقية الرومانية ، فمن الواجب أن يعلم أن نماذج هذه المدينة كانت تملأ رحاب البلاد المحيطة بالجزيرة العربية ، وأن بعضها كان من تشييد عرب ما قبل الإسلام ، أو الأقوام التي اعتنقت الإسلام فيما بعد ، مما يؤدي بالنتيجة إلى التأكيد بأن تلك المدن مبتكرات عمرانية تجد مكانها الطبيعي في تاريخ العراق وسورية ومصر وليبيا المعماري والمدني أكثر من أن تجده في تاريخ توسع الإغريق والرومان والبيزنطيين ، وأن إشراق فجر الإسلام عليها كان حدثاً هاماً في حياتها التي هرمت وأن هذا الحدث جعل يجدد تراكيبها وإطاراتها وفق معطيات لم تكن غريبة عنها ، ويوجه تطورها نحو ابتكار منشآت أكثر انسجاماً مع الأوساط الجغرافية التي قامت فيها ، ومع المفاهيم الحضارية التي نشرها العرب المسلمون .

ب ـ مدن الأمصار :

وأول فوج من أفواج المدن العربية الإسلامية ، مدن الأمصار التي أنشأها العرب بعد انتشارهم السريع في أطراف الدنيا الواسعة التي آل إليهم أمرها . وكان تشييد هذه المدن تحقيقاً لغايات استراتيجية وسياسية دفعت إليها ضرورات إبقاء الجيوش العربية معبأة خلال فصل الشتاء عندما تتوقف الأعمال العسكرية في أماكن لا تتعرض لخطر الأعداء . ومما يجدر ذكره أن الأمصار لم تكن تحاط بالأسوار ، لأنها لم تكن مدناً دفاعية ، بل محطات هجومية تستخدم للانطلاق بغية متابعة الفتوح عندما تتهيأ كل الفرص والاستعدادات . كما كانت تتخذ

لحفظ الأمن والنظام في البلاد المفتوحة ولتأمين المواصلات مع عاصمة الدولة الإسلامية التي كانت كما هو معلوم في شبة جزيرة العرب . وكان تخطيط هذه الأمصار يتم بعد استئذان الخليفة ، وضمن شروط تدرج في معاهدات الصلح .

ومن البديهي أن يكون سكان الأمصار من جنود القبائل المشاركة في الجهاد ، ومن بعض سكان المناطق التي تقوم في أراضيها ، ومن كل من كان يرافق الجيوش العربية لتموينها وتأمين حاجاتها . لذلك فإن توزيع مقاسمها كان يجري بين القبائل حسب عدد مقاتليها ، وبعد توزيع هذه المقاسم على أحياء تنتظم في جزيرات قائمة ضمن مخططات متعامدة شبيهة بتخطيطات المدن العسكرية ، والمعسكرات الرومانية البيزنطية .

وهكذا نشأت **البصرة** باكورة مدن العرب المسلمين الجديدة منذ السنة (١٤ هـ ــ ٦٣٥ م) بصورة عفوية ، وبلا تخطيط ، ودون أمر الخليفة . **وذلك بأن** استبدل المقاتلون العرب خيامهم التي ضربوها في موقعها أثناء الفتح بمنازل من اللبن والطين . وقد بُني على هذا الشكل مسجدها وشيدت جنوبه دار أمارتها . وبعد ثلاث سنوات من نشوء البصرة أي في السنة (١٧ هـ ــ ٦٣٨ م) أمر الخليفة عمر بن الخطاب ، إثر معركة القادسية ، أن ينتقل سعد ابن أبي وقاص من المدائن ، وأن ينزل في **الكوفة** .

ويذكر المؤرخ البلاذري ، أن سعداً لما بلغ موقعهـــا أمر رجلاً مغلاً بأربعة أسهم في مهب القبلة ، ومهب الشمال ، ومهب الجنوب ، ومهب الصبا ، وأعلم على مواقع هذه الأسهم . ثم بني المسجد ودار الأمارة في وسط المدينة التي عينت حدودها ، ووزعت أراضيها بين القبائل . وكان شكل الكوفة مستديراً كما يبدو من حديث البلاذري ، وكما ذكر ياقوت الحموي عنها ، وكانت طرقها منظمة حول مسجدها . وقد جعلت الرئيسية منها بعرض (٤٠ ذراعاً) والفرعية بعرض (٢٠ ذراعاً) .

وأنشأ العرب المسلمون في بلاد الشام مصراً آخر هو **الجابية** الذي لم يعمّر طويلاً بسبب انتشار الإسلام انتشاراً سريعاً في هذا الاقليم ، وانحياز كل مدنه إلى الجانب العربي ، وابتعاد جبهة القتال مع البيزنطيين إلى ما وراء جبال الأمانوس . وكانت الجابية المقام المفضل لأمراء الجنينة بنسان ، وهي قرية من نواحي الجولان على مسيرة يوم إلى الجنوب الشرقي من دمشق ، وقائمة على عدة تلال . وكانت وفيرة المياه ، وفي أرباضها مراع جيدة ، ويعرف باب دمشق المؤدي إليها باسم (باب الجابية) .

وكانت الجابية خلال حياتها القصيرة في العهد الإسلامي الأول ، مركز جند الشام . وقد قدم إليها الخليفة عمر بن الخطاب وبصحبته كبار الصحابة ، عام (١٧ هـ) ، ودخلها دخول الظافر ، فكان قدومه أول مظهر كبير للتوسع العربي . وعقد في الجابية لتنظيم الفتوحات الجديدة ، مجلس حضره جميع قواد الجيش ، ورؤساء جند الشام ، وعرفت خطبة عمر في هذا اليوم بخطبة الجابية . وكان في الجابية مسجد جامع ، وقد زارها الخلفاء الأمويون وأقاموا فيها في مناسبات شتى .

ومن الأمصار **الفسطاط** أولى المدن التي شيدها العرب في مصر ، وذلك عندما ألقى عمرو بن العاص الحصار على حصن بابل الافريقي القبطي سنة (١٩ / ٢٠ هـ — ٦٤٠ م) ، وأقام معسكره في هضاب المقطم على أرض صخرية لحمايته من فيضان النيل السنوي . ولما تمّ فتح الاسكندرية ، استبدلت خيام المعسكر بمبانٍ آجرية ، ووزعت أراضي الفسطاط على القبائل المجاهدة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ، وبني فيها جامع عمرو بن العاص ، وجعلت إلى جانبه دار هذا القائد ، وبيت المال ومخازن الجيش . وكانت شوارع الفسطاط منتظمة وتسمح بمرور فارسين . وقد أصبحت هذه المدينة مقر الحكام العرب الذين تولوا ادارة مصر ، وسيصار بعد قليل إلى متابعة الحديث عن أثرها الكبير في تطوير المدينة العربية الإسلامية في عهد العباسيين .

وتمثل **القيروان** نموذجاً آخر من نماذج الأمصار العربية الإسلامية في افريقيا

الشمالية . وكان تأسيسها في مكان لم تشيد فيه أية مدينة قديمة قبلها . ويظهر أن القائد العظيم عقبة بن نافع انتخب هذا الموقع الضائع في السهب التونسي ، لاحتوائه على ينابيع للماء ، ولكونه ملتقى للطرق الاستراتيجية وخاصة الطريق الشرقية الغربية والطرق الشمالية الجنوبية الصحراوية . ولم تلبث القيروان أن أصبحت بعد سنة (٤٩ / ٥٠ هـ — ٦٧٠ م) معسكراً كبيراً يتجمع فيه العرب المشارقة الذين يفدون عبر ليبيا لمتابعة الفتوح ، وقاعدة لشن الحملات على السهول الشمالية والهضاب المرتفعة الغربية التونسية والجزائرية ، ومركزاً للدعوة الإسلامية في كل أفريقيا .

ويتبين مما تقدم أن القاعدة الأولى في تخطيط كل مصر من الأمصار العربية الإسلامية الأولى التجاوب مع حاجات عسكرية لاقطاع أراضيه للقبائل التي يتألف منها الجيش ، وتوزيع هذه الأراضي بنتيجة ذلك على أحياء تعيش في اطاراتها القبائل وفق عاداتها وتقاليدها ، وتنظم حياتها في كتل معمارية منتظمة يقوم في وسطها مبنى الجامع ، وبيت الأمير قائد الجيش . ويلاحظ أنه بقيام الجامع وبيت الأمير أضيفت إلى وظيفة المصر العسكرية وظيفتان دينية وسياسية .

وفي الواقع كان تشييد الجامع في قلب المدينة العربية الاسلامية الأولى تعبيراً عن الحياة الدينية الجديدة التي نشرها الاسلام في الأقطار المفتوحة . وكان من المتوقع أن تتميز عمارة الجامع عن غيرها من عمارات بسبب كون الجامع مركز تجمع السكان لتأدية صلواتهم وخاصة صلاة الجمعة ، والمكان الذي تعمم فيه الأحكام لتوطيد دعائم المجتمع الجديد ، ونشر الدعوة الاسلامية ، ويحفظ فيه بيت المال ، ويتقاضى الناس . كما كان من الطبيعي أن تتمتع الجوامع الأولى كجامع عمرو في الفسطاط وجامع عقبة في القيروان بمكانة خاصة زادتها الأيام رسوخاً وإجلالاً . هذا ولم يقم إلا جامع واحد ، بادىء الأمر ، في كل مصر ، ولم تتعدد المساجد في الأمصار وغيرها من المدن الإسلامية ، إلا خلال العصر العباسي .

أما الوظيفة السياسية في مدن الأمصار فكان يؤمنها القائد الذي يتولى السلطة من الخليفة ، ويحكم باسمه . وليس لدينا معلومات دقيقة عن بيوت القواد في هذه المدن ، وكانت تقام إلى جانب الجوامع ، ويظهر أنها كانت عمارات بسيطة ، وأنها لم تتميز عن غيرها من المباني إلا تدريجياً ، وذلك لاضطرار الحكام لإنشاء أجهزة إدارية واسعة ، وتصريف شؤون الحكم ، واستقبال موفدي الدول المجاورة وعامة الناس ، وتأمين حمايتهم الشخصية ، وتوفير راحتهم ، ووجوب إظهار سلطانهم ومهابتهم ، واستخدام الإمكانات المادية الواسعة التي أصبحت تحت تصرفهم .

جـ ـ المدينة الأموية :

ويعكس نشوء المدن وتطورها حاجات كل أمة لإنشاء إطارات مادية تصرف ضمنها حياتها المشتركة ، ويتجلى فيها مدى رغباتها في الحياة المشتركة ، ومقدار طموحها بالنهوض بهذه الحياة إلى المستوى الذي تراه لائقاً بها . وقد يلعب الملوك والأمراء والحكام في هذا المضمار دوراً طليعياً . وكما توخى الأمراء والهلنستيون والأباطرة الرومان والبيزنطيون والملوك الساسانيون نشر شهرتهم ، واستخدام موارد دولهم ، في إنشاء المدن الجديدة وتزيينها ، وإصلاح المدن القديمة وتوسيعها ، استهدف الخلفاء الأمويون ثم الخلفاء العباسيون ، إظهار عظمة الدولة العربية الاسلامية التي بلغ اتساعها في عهدهم حداً لم تبلغه دولة أخرى، عن طريق القيام بأعمال معمارية وعمرانية فريدة في تاريخ العصر الوسيط .

١) المدينة الأميرية :

وسنّ الخلفاء الأمويون ، إظهاراً لعظمة دولتهم خطة معمارية وعمرانية أصبحت قاعدة عامة احتذاها الخلفاء والملوك والأمراء في أكثر أقطار العالم العربي الإسلامي مدة عصور طويلة ، وأدت إلى ظهور نماذج متعددة من **المدن الأميرية** ، أغنت فن العمران العالمي بحلول عملية تصلح لكل زمان ومكان .

وقد أظهرت الدراسات والأعمال الأثرية التي ما زالت مستمرة في بادية الشام ما يزيد على ثلاثين قصراً كبيراً ومجمعاً معمارياً ، بناها الأمويون من الحجر والآجر والطوب ، وأحاطوها بأسوار عالية وزودوها بمنشآت دفاعية ، ووزعوا أقسامها حول باحات مركزية تحيط بها المجنبات ، ونظموا فيها على طابق أو اثنين قاعات الاستقبال الضخمة وعدداً كبيراً من الغرف الكبيرة والصغيرة والعنابر والمخازن والمطابخ وغيرها ، وزينوا واجهاتها الخارجية وأبهاءها الداخلية بالزخارف الحجرية والجصية المنحوتة أو الملونة ، وفرشوا أرضياتها بألواح الفسيفساء الثمينة . وشيدوا خارجها منشآت خصصت لكل ما تحتاج إليه حياة التجمع كالمساجد والحمامات والبيوت الكبيرة والصغيرة والحوانيت والاصطبلات والزرائب . وتألف من كل ذلك مدن صغيرة كانت القصور المشار إليها نواتها ، وسيق إليها الماء من مسافات بعيدة ، واقيمت السدود في نقاط تجمعه ، وبنيت القنوات على مسافات عشرات الكيلومترات لتسهيل جريانه وشيدت البحرات والصهاريج لاستقباله وتوزيعه .

وهكذا أعمرت بادية الشام ، وبعثت الحياة في أرجائها ، ونشرت الحدائق والبساتين حول مجمعاتها السكنية الصحراوية ، وغرست في هذه الحدائق والبساتين أشجار النخيل والرمان والإجاص والكروم والأزاهير في عهد الوليد وهشام وسليمان بن عبد الملك .

وأجمل هذه المجمعات قصر المشتى الذي اشتهر بمبانيه الحجرية وبقاعاته المسقوفة بالعقود الآجرية (ومنها قاعة العرش الكبرى التي تشبه ما يماثلها من قاعات في قصور الملوك الساسانيين) وبزخارفه الجصية الرائعة التي زينت واجهته الخارجية ، والتي نقلت في آخر القرن الماضي إلى متحف برلين حيث بني لها جناح خاص أعيد تشييده فيها . ثم قصر خربة المفجر الذي يحوي قاعة فخمة للاستقبال تقوم إلى جانبها قاعة فسيحة للاستحمام . وتزين مختلف أرجائه مجموعة من الزخارف المنحوتة والملونة ، وأرضيات قاعاته مجموعة من ألواح الفسيفساء التي تمثل مختلف المواضيع الهندسية والنباتية والحية .

فقصر الحير الغربي المتألف من مجمع كبير قائم في وسط مستوطنة زراعية وحديقة فسيحة الأرجاء . وقد نقلنا واجهته الرئيسية ، وأعدنا إنشاء جزء منه ، في متحف دمشق الوطني منذ ثلاثين سنة ، وقصر الحير الشرقي الذي يتألف من قصر شبيه بما ذكر ، وتقوم إلى جانبه مدينة صغيرة مربعة محاطة بسور حجري معزز بالأبراج .

٢ ـ المدينة الأموية المتربعة في إطار المدينة الاغريقية الرومانية القديمة

وكان الاعتقاد سائداً إلى زمن غير بعيد أن العرب قنعوا بالحلول في مدن دمشق وحلب وانطاكية واللاذقية وحماة وغيرها التي تشبه مخططاتها المتعامدة رقعة الشطرنج والتي كانت مصطبغة بالصبغة البيزنطية ، حتى تبين أخيراً أنهم تابعوا منذ فاتحة العهد الأموي تجاربهم المعمارية على جميع المستويات ليحققوا لأنفسهم الأجواء الفنية التي تتناسب مع حياتهم الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وكما أنشأوا المدن الأميرية الصغيرة في بادية الشام بادروا إلى إنشاء مدن جديدة في أطراف سهول بلاد الشام لاستيعاب المهاجرين الجدد الذين دفعت بهم شبه جزيرة العرب ، وأظهرت الحفائر الأثرية التي جرت في شمالي سهل البقاع من لبنان الحالي في مكان يقال له (عنجر) أو (عين الجار) مدينة ذات مخطط على شكل رقعة الشطرنج ، ومحاطة بسور مستطيل ، ويقطعها شارعان متعامدان تقوم على طرفي كل منهما الأعمدة ، ويرتفع في نقطة التقائهما مبنى (تيترابيل) . وبالقرب من مركز هذه المدينة خصصت جزيرة لدار الأمارة وللمسجد ، كما خصصت جزيرات أخرى للمساكن والحوانيت . ويقيم هذا الاكتشاف الدليل على أن بناة المدينة الأمويين كانوا عارفين لمزايا المخطط المتعامد ، ومدى تجاوبه مع مختلف حاجات التجمعات البشرية ، والسهولة التي يوفرها لعمليات التوسع المستقبلة ، وقادرين على تطويره وفق مقتضيات المدينة الاسلامية الناشئة.

وأكبر الظن أن هذه التجربة في (عنجر) لم تكن تجربتهم الوحيدة في هذا المضمار . وكم من مدينة أموية مماثلة ما زالت ثاوية في أرض بلاد الشام تنتظر معاول المنقبين الأثريين حتى تبوح بأسرار تشييدها وبتاريخها . ومن المؤسف ألا يتمكن المنقبون العرب من إجراء حفائر أثرية في الطبقات الأموية لمدينة (الرملة) في فلسطين التي تذكر المصادر التاريخية ان سليمان بن عبد الملك هو الذي بناها ، والتي رزئت منذ عام ١٩٤٨ بالاحتلال الصهيوني الذي يسعى جاهداً لطمس معالم المدينة العربية .

ومهما كان الأمر فمن اللازم أن ندرس المشاكل العمرانية التي اعترضت المدينة ذات المخطط المتعامد أثناء تحولها إلى مدينة عربية إسلامية . وليس يوجد خيراً من دمشق لايضاح هذا التحول على الرغم من قلة المعطيات المادية التي وفرتها الدراسات . وكان على هذه المدينة أن تصبح عاصمة تليق بالدولة الإسلامية الأموية المترامية الأطراف ، وأن تطور منشآتها حتى تستوعب كل الحاجات الجديدة . ولا يخفى أن موقع دمشق وماضيها هيآها لأن تكون منذ الألف الثاني ق. م عاصمة الآراميين ، ثم عاصمة موقتة للسلوقيين ، ثم مدينة مهمة جداً في العهدين الروماني والبيزنطي . وقد اشتهرت كما ذكرنا مراراً بمخططها المتعامد وشكل أسوارها المستطيل، وبشوارعها المستقيمة المحاطة بالأروقة التي كانت بما لها من عرض ٢٥ متراً تعد أضخم وأوسع شوارع في المدن القديمة ، وخاصة بمعبدها المسمى معبد جوبيتر الدمشقي الذي كان يبلغ طول إطاره الخارجي (التمينوس الخارجي) من الشرق إلى الغرب نحو ٣٨٥ متراً وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٣٠٥ أمتار مؤلفاً شبه منحرف ضخم تنتظم الحوانيت التجارية من داخله . أما إطار المعبد الداخلي المحاط بأروقة مستندة على جدران مزينة بدعائم فكان يؤلف شكلاً رباعياً طوله ١٥٧ ١/٢ متراً ، من الشرق إلى الغرب ، وعرضه نحو ١٠٠ متر من الشمال إلى الجنوب . وكان يقوم ضمن هذا الإطار الأخير مبنى المعبد المستقل ، شأن معبدي تدمر وبعلبك المماثلين . ويظهر أن الأمبراطور تيؤدوزيوس حوّل

المبنى المذكور إلى كنيسة للقديس يوحنا (سيدنا يحيى) كما فعل المسيحيون في عدد كبير من مباني المعابد الوثنية في كثير من المدن الاغريقية الرومانية الشرقية والغربية .

وكان من الطبيعي أن يسعى الخلفاء الأمويون لأن يشيدوا إظهاراً لعظمة الدين الجديد جوامع تعادل أو تفوق بتراكيبها المعمارية الضخمة الكنائس التي بناها الأباطرة البيزنطيون قسطنطين وأنسطاس وجوستنيان ، وكنا تحدثنا عن بعضها . لهذا فقد قام خلال حكم عبد الملك بن مروان جامع قبة الصخرة والجامع الأقصى في القدس ، ووجب أن ترتفع في دمشق العاصمة وفي المدن السورية الأخرى مبانٍ مماثلة .

ولم يكن أمام الخليفة الوليد بن عبد الملك إلا أن يسترضي من تبقى من المسيحيين في دمشق ليستخلص منهم كنيسة القديس يوحنا ، وذلك بالتعويض عليهم ، وبالسماح لهم بإقامة شعائرهم الدينية في أربع كنائس من الكنائس الأربع عشرة التي كانت قائمة في دمشق . وهدمت كنيسة القديس يوحنا كما هدم ما كان متبقياً من معبد جوبيتر الدمشقي ، ضمن إطاره الداخلي ، وانصرف الوليد خلال عشر سنوات إلى بناء جامع دمشق المشهور الذي ما زال إلى اليوم يعد من أروع المباني الدينية في العالم ، بما له من مآذن ترتفع إلى عنان السماء ، ومداخل فخمة ، وصحن مستطيل فسيح تنتظم المجنبات على أطرافه الثلاثة التي تزينها ألواح ثمينة جداً من الفسيفساء والرخام المجزع ، وحرم تقطعه طولانياً بلاطة متوسطة مستعرضة ، وعرضانياً ثلاث بلاطات متوازية ومتساوية ، تقوم على سلسلة من الأعمدة والدعائم المتعاقبة ، وقد استخدم في هذا العمل كبار الفنيين في بلاد الشام ، ومصر ، وأنفق عليه مبالغ ضخمة جـــداً .

وأكبر الظن أن الغاية من الإبقاء فقط على جدران الإطار الداخلي للمعبد القديم ، وإدخالها في تركيب الجامع الأموي ، ايجاد الانسجام بين المبنى الرائع الجديد

وبين المنطقة المتوسطة المهمة التي تحيط به في قلب دمشق ، دون أن يؤدي قيام المسجد إلى أي تخريب مهم في الحجوم التي تتألف منها هذه المنطقة ، أو إلى تعطيل أو تحويل في شبكات الطرق التي كانت تصل بين أجزائها وأجزاء المدينة الأخرى . مما يدل على توفر الخبرات الواعية لدى من كان يعهد إليهم بتصريف المشاريع المعمارية الأموية الكبرى ، وعلى أن المنطقة المركزية في دمشق كانت صالحة للقيام بما أريد لها من وظائف أخرى .

وتأمنت وظيفة المدينة السياسية بتشييد الدار الخضراء التي عاش فيها معاوية وخلفاؤه ، في جنوبي الجامع الأموي . وقد اندثرت هذه الدار ، ولم يبلغنا شيء عن مساحاتها وتقسيماتها . ويعتقد أنه قام في مكانها قصر العظم المعروف الذي بني في القرن الثامن عشر . ولم نجرؤ على إجراء تنقيبات استكشافية في أرجائه بحثاً عن معالم الدار الخضراء ، وذلك حرصاً على ألا يصاب جماله المعماري البديع بأي سوء ، ولأن في أطراف بادية الشام كما ذكرنا عدداً كبيراً من القصور الأموية الأخرى التي وفرت معلومات وافية عن الإطارات التي عاش فيها الخلفاء الأمويون . وكذلك لم يصلنا أي معلومات تسمح لنا بتحديد المواقع الطوبوغرافية للقصور والمشافي والملاجىء والمباني العامة الأخرى التي بناها كما تذكر الأخبار التاريخية ، الخلفاء سليمان وهشام وعمر بن عبد العزيز في دمشق وغيرها .

وتابعت دمشق تصريف وظيفتها الاقتصادية في التراكيب التي كانت قائمة خارج الجامع الأموي وحول الإطار (التمينوس) الخارجي للمعبد القديم . ويظن أن الصناعة والتجارة الدمشقيتين اللتين كانتا مزدهرتين خلال العصرين الروماني والبيزنطي تمتعتا برخاء منقطع النظير في العصر الأموي بسبب اتساع المواصلات التي قامت بين العاصمة وبين المدن العربية الإسلامية الأخرى . ولا ريب أن الصناع كانوا يبيعون مصنوعاتهم ، والتجار ما كانوا يتلقون من بضائع تحملها التيارات التجارية المختلفة ، في الحوانيت التي كانت قائمة في تلك المنطقة المتوسطة من المدينة . مما سمح بمتابعة تخصيص كل من الأسواق

بنوع من البضائع الذي عرفته بعض المدن الاغريقية الرومانية في الأزمنة السالفة ، ثم بانتقال التخصيص المذكور من منطقة الجامع الأموي ، وشموله أسواقاً أخرى تقع في أجزاء مختلفة من المدينة ، وذلك عندما جعلت المدينة تنقسم إلى أحياء يعيش كل منها ، كخلايا من خلايا الجسم .

وتخصيص كل سوق بنوع من البضائع ، وتجمع الأسواق حول الجامع ، صفة رئيسية من صفات المدينة العربية الاسلامية ، وقد أضيف إليها في دمشق الأموية صفتان هامتان أخريان وهما غزارة المياه وتوفيرها إلى كل حي من أحيائها ، وإحاطة الحدائق والبساتين بأطرافها ، ونفوذ الخضرة إلى كل بيت من بيوتها . وقد تعززت هاتان الصفتان في دمشق تدريجياً .

ولا يخفى أن دمشق ورثت عن العهود الماضية جهازاً متقناً للارواء والسقاية متألفاً من توزيع نهر بردى الذي يمر بها إلى عدد من الفروع التي تحمل الماء إلى مختلف أرجائها . وقد أضيف إلى هذه الفروع فرع جديد في عهد الخليفة يزيد كما يدل على ذلك اسمه .

د ــ المدينة العباسية :

وتعرضت المدن الإغريقية الرومانية الشرقية والافريقية خلال العصر الأموي لتطور مماثل لتطور دمشق ، ونشأ عنه نموذج لمدينة عربية إسلامية يتجدد محتواها ، ضمن إطارات قديمة تهترىء مع الزمن فتتجدد جزئياً دون أن تتغير أو تزول كلياً . وإذا استثنيت مباني الجوامع التي ارتفعت في سماء هذه المدن ، فإن مبانيها العامة والخاصة التي جعلت تنتظم تدريجياً داخل تلك الإطارات وخارجها ، ما كانت على حجوم ضخمة ، لان جهود الخلفاء الأمويين ، ومن ولّيَ من حكام لإدارتها ، انصرفت خاصة لامتصاص المهاجرين العرب الذين نزلوا فيها ، وحلّ المشاكل العملية التي نشأت عن توسعها كشق الأقنية ، ونقل المياه ، وإنشاء المستوطنات الزراعية والبساتين حولها .

ونتج عن انتشار هذا العمران العملي الأموي توفر عدد كبير من المهندسين والاختصاصيين وعمال البناء الذين ما عادوا يجهلون أي سر من أسرار صنعة البناء . ولما حلّ العصر العباسي ، ساعد الرخاء الاقتصادي الذي عرفته الدولة العربية الإسلامية على استخدام هؤلاء الفنيين في تحقيق مشاريع لمدن جديدة تختص بمجمعاتها المعمارية الضخمة من دينية ومدنية التي انتظمت وفق مفاهيم اقتصادية وسياسية وعسكرية واجتماعية أكثر اتساعاً من المفاهيم التي قامت عليها المدينة العربية الأموية . وتعزى هذه الصفة في المدينة العباسية على مايظهر ، إلى تمكن البنائين العرب المسلمين من استخدام اللبن والآجر والجص بسهولة ، في أرض العراق وغيرها من الأقطار الإسلامية ، ثم إلى توصلهم في النواحي التيكنولوجية إلى طرق سريعة جماعية ، لإنشاء المجمعات الضخمة على نطاق واسع .

وإلى اختلاف البيئة العراقية عن البيئة السورية من الناحيتين الجغرافية والحضرية ، تفترق المدينة العباسية عن المدينة الأموية بعدم تطورها تطوراً مستمراً ، وبشيء من عدم الاستقرار كان يعيق نموها . وإذا استثنينا البصرة التي تابعت حياتها بصورة طبيعية ، نظراً لموقعها الجغرافي الممتاز ، فإن بقية المدن العراقية لم تعرف مثل هذا الاستقرار . فقد تعطل نمو الكوفة بسبب تشييد بغداد . كما أن تطور بغداد توقف حيناً لما بنيت سامراء . وقضي على سامراء قضاء تاماً لما عاد الخلفاء العباسيون إلى بغداد التي عادت إلى التوسع حتى القرن الحادي عشر الميلادي . حيث توقف ازدهارها بسبب انحطاط الدولة العباسية .

١ ــ بغداد المدينة المدوَّرة

وهدم العباسيون ، لما آل الحكم اليهم ، معظم المنشآت الأموية المدنية ، إلا أن الأصول والأساليب التي شيدت بموجبها بقيت ذخراً للمدنية العربية ، وظهر تأثيرها خاصة في العراق لما عزم الخليفة أبو جعفر المنصور على تشييد

مدينة بغداد . والكلام عن هذا العمل مستفيض ، ولا يسمح المقام بالخوض في بحث تاريخي وأثري وعمراني شامل عن ولادة المدينة المذكورة وعن حوادث نموها والظروف التي أحاطت بتطورها في مختلف العصور . ومرادنا فقط الإشارة باقتضاب لكل ما أخذته عن المدن العربية الإسلامية التي تقدمت عليها، وإيضاح ما تركه تشييدها في فن العمارة والعمران العربيين من أثر .

وأولى صفات العمل الكبير الذي حققه المنصور كانت الإرادة الواعية والمدركة لأهمية الواجب الملح في ايجاد مدينة تتجلى فيها عظمة الدولة العربية الاسلامية التي تخلت عن عاصمتها دمشق ، ونقلت مركز الحكم إلى الشرق . ولم يختر المنصور البصرة أو الكوفـــة أو واسط أو الهاشمية ، وجُذِبَ إلى المنطقة التي جُذِب إليها من قبله الآشوريون والبابليون والإسكندر المكدوني والبارثيون والأكاسرة ، ومال إلى الموقع الذي تحميه الأنهار ويتعذر غزوه ، وتنتهي إليه طرق القوافل من كل الاتجاهات ، ويتصل عن طريق دجلة بالبحر وما وراءه ، وتأتيه الميرة من الجزيرة وأذربيجان وأرمينيا ، وتصله حاصلات ديار مُضر والرقة والشام ، ومصر والمغرب مارة بالثغور والفرات .

وكان المنصور متمرساً بالقضايا المعمارية والعمرانية ، لأنه دُفع عملياً لمعالجتها لما أنشأ مدينة الهاشمية بين الكوفة والحيرة . لذلك فإنه بعد أن اختار موقع بغداد ، التفت لتهيئة مصانع تنتج على نطاق واسع مواد تحتاج إليها أعمال البناء ، ثم استدعى من العراق والشام المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأراضي والفعلـــة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين ، الذين بلغ عددهم كما قيل مائة ألف . وكان بين المهندسين خمسة ذكر البلاذري اسماءهم . وقد تداول المنصور معهم في كل أمر من أمور المدينة المقبلة ، ووجب عليهم أن يحلوا قبل كل شيء ، قضية الشكل الذي يجدر أن تكون عليه بغداد ، على ضفة دجلة الغربية حيث تنبسط الأرض . وكان أن نصحوا الخليفة أن يتخذ لمدينته المخطط المستدير ، لأن هذا

المخطط ينسجم مع مخطط الهاشمية ، ويتفق مع الصورة التي يتمثلها المنصور عن عاصمته المقبلة .

وكان المخطط المستدير معروفاً منذ أقدم الأزمنة التاريخية في بلاد الشرق القديم ، إلا أنه لم يلق الشيوع الذي لقيه مخطط المدينة المتعامد . والظاهر أن أسباباً عسكرية دفعت لجعل بعض المدن مدورة ، لأن هذا التدوير يحذف الزوايا من الأسوار والأبراج ويزيد في مناعتها . وكانت بعض المدن السومرية والمصرية والسورية والأناضولية القديمة مدورة . وكذلك كانت المعسكرات الأشورية ، وبعض المدن البارثية والفارسية كالحضر والمدائن .

ويدل اختيار المنصور للشكل المعماري المدور العسكري عن اهتمامه الأول بتأمين سلامته الشخصية وجعل جهاز الدولة بمنأى عن حركات العصيان التي تعددت في عهده . وقد قمع ثلاث ثورات كان أبطالها أقرب الناس إليه . وبالطبع لم تجر العادة أن تحاط المدن العربية الأولى كالأمصار بالأسوار . لأن الدولة العربية كانت في أوج عظمتها ولا تجسر أية دولة معاصرة على نقل الحرب إلى أراضيها أو مهاجمة عاصمتها . وكان ذلك واضحاً في ذهن المنصور ، لهذا فإنه قصر الحماية العسكرية التي أراد توفيرها لبغداد على حماية المجمعات التي تحتاجها الخلافة لتصريف شؤون الحكم ، بحيث تكون المنطقة المحصنة ملاذاً مؤقتاً يعتصم به الخليفة وجنده وسكان عاصمته في أوقات الشدة .

وغير خاف أن رسم السور المدور يحتاج إلى الفرجار وأن تنفيذه على أرض مستوية أو غير مستوية يتطلب فناً هندسياً . وذكر الطبري أن المنصور أمر أن يخط رسمه على الأرض بالرماد ، وأنه طفق يطوف في أقسام المدينة المخطوطة . ثم أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ، وأن يصب عليه النفط ، وراح ينظر إليها والنار تشتعل . فأدرك أنه تحقق فيها ما يريد وأوعز أن يحفر أساسها على ذلك الرسم وأن يبدأ بعملها .

وانتهى المنصور من بناء المدينة المدورة سنة (١٤٩ هـ – ٧٦٦م) . ولم يصل إلى زماننا شيء من عماراتها ، فقد انهارت صروحها ، وأزالت الكوارث الطبيعية والحروب معالمها وطمست خططها ، كما طمست خطط مدينة دار السلام التي نشأت حولها واستمر بناؤها سنوات طويلة بعد عهد المنصور . ومن اللازم أن نعود إلى المؤرخين العرب كالخطيب البغدادي واليعقوبي والطبري لنتعرف على أوضاعها . وقد فعل ذلك بذكاء ومهارة المؤرخون المعاصرون لوسترانج وهيرزفيلد وكرميزويل ولاسنير وصالح أحمد العلي وغيرهم . وأنا أختار من الدراسات القيمة التي أجروها بعض ما يتراءى لي أنه متفق مع ما اعتقد أنه ينسجم مع عمارة وعمران المدينة العربية الإسلامية ومع تطورهما .

وكما ذكرت سابقاً لم تكن المدينة المدورة المحصنة إلا جزءاً من دار السلام التي أنشأها المنصور . وقد بلغ قطرها نحو ٦٠٠ متر ، وكانت تبدأ بخندق ثم بسور أول ففصيل غير مبني فسور ثان ، ثم فصيل ثان فمنطقة سكنية عرضها نحو ٢٧٨ متراً قسمت أراضيها وأقطعت لقواد جيش الخليفة ومواليه والجند المكلف حماية المدينة المدورة ويظن أن عددهم كان ٤٠٠٠ جندي ، وجعلت على شكل أحياء لكل حي منها باب كان يغلق ليلاً . ويلي هذه المنطقة فصيل ثالث مؤلف من رحبة واسعة خصصت لمنشآت جهاز الحكم . ومن هذه المنشآت المسجد الجامع ، وقصر المنصور الذي علته قبة خضراء كانت تذهب في السماء ٤١ متراً ، وبيت المال ، وخزانة السلاح ، وديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الجند ، وبعض بيوت المهدي وبقية أولاد المنصور وصاحب شرطته ومحتسب المدينة .

وقسمت دار السلام إلى أربعة أقسام متساوية ، وجعل لكل قسم باب في السور ، ونظمت الطاقات (الحوانيت) على جانبي الطرق التي تصل أبواب المدينة الأربعة بالرحبة المركزية ، وخصصت هذه الطاقات التي بلغ عددها (١٠٠) طاقة ببعض الأسواق لتأمين حاجات جهاز الحكم وأفراد حامية المدينة المدورة .

ولم تشغل الأسواق المذكورة إلا بضع سنوات لأن المنصور أمر بنقلها لخارج المدينة .

وكذلك لم تعمر المدينة المدورة طويلاً ، لأن تقسيماتها الهندسية الجامدة كانت تحد من الانتفاع بما فيها من أراضٍ . فهجرت تدريجياً ، ولم تفد تحصيناتها شيئاً خلال الثورة التي أدت إلى مقتل الأمين . إلا أن الفكرة التي حققها المنصور في توفير الحماية لأجهزة الدولة داخل المدينة العربية الإسلامية ظلت حية ، وانتقلت إلى مدن بلاد الشام ومصر وافريقيا وغيرها من أقاليم العالم الاسلامي وصارت تتحقق على شكل قلعة تبنى إما في مركز المدينة أو في أحد جوانبها ، وترفق برحبة وميدان لازمين لتمارين الجنود والفرسان .

أما بقية أقسام بغداد فقد انتشرت في أرباضها مؤلفة جسماً عمرانياً متسعاً جداً ومتماسكاً ، ويمتد على ضفتي نهر دجلة ، ويجذب إليه السكان الذين أقبلوا من كل صوب حتى بلغ عددهم أكثر من مليون نسمة بعد مدة قليلة . واختصت الضفة الشرقية بالوظيفة الاقتصادية . وفي هذا الصدد يحدثنا الخطيب البغدادي أن المنصور دعا بثوب واسع فحَدَّ الأسواق في موقع الكرخ ، ورتب كل صنف في موضعه ، وأوعز بجعل سوق القصابين في آخر الأسواق لأن هؤلاء الناس ، في أيديهم الحديد القاطع ، وأمر ببناء الأسواق جاعلاً بينها مسجداً على نفقته . وقد اتسعت هذه المنطقة التي ازدهرت فيها الصناعة والتجارة غربي بغداد وجنوبها .

وخصصت منطقة الرصافة الواقعة على ضفة دجلة الشرقية بسكن كبار رجال الدولة ، وكان يمكن بلوغها في زمن المنصور عن طريق جسور مؤلفة من قوارب متصل بعضها ببعض . وألَّف نواتها قصر الخلد الذي بناه المنصور في موضع دير قديم ، وقصور أولاده المهدي وسليمان وصالح وجعفر ، ثم قصور رجال دولته التي اجتمع حول كل منها بيوت اتباعهم وأنصارهم ثم جعلت هذه القصور والبيوت تقترب من بعضها تدريجياً . وأكمل المنصور هذا

العمل العمراني الفريد وفق أفكاره ونظرياته ، ضمن خطة توزيع (زونيع (Zoning) كان مبتكرها في تخصيص مواليه وأفراد جنده الذين كان عددهم ثلاثين ألفاً بما فيهم حامية المدينة المدورة لبعض الأراضي ، وذلك بتقسيم ما بقي من رقعة بغداد بينهم إلى أحياء مخصصاً حياً أو عدة أحياء منها بكل الفئات اليمنية والكوفية والبصرية والواسطية والخوارزمية والخراسانية والافريقية التي يتألفون منها وجعل في كل حي مسجداً وسوقاً صغيرة ، لتجد كل فئة إطاراً عمرانياً يصلح لتصريف حياتها ، فتتعايش سلمياً دون أن يمتزج بعضها ببعض .

ووضعت متابعة تشييد بغداد أمام الخليفة ضرورة توسيع الأقنية المائية التي كانت تروي موقعها قبل بنائها . فوسعت هذه الأقنية لتكفي حاجات المدينة المدورة وأرباضها . وقد مَدّ المنصور قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة ، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من نهر الفرات وجرّهما في عقود إلى مدينته ، وتفرعت من هاتين القناتين جداول عديدة جرت مكشوفة ومخفية تحت الأرض بحذاء الشوارع والدروب ، صيفاً وشتاءً دون أن ينقطع ماؤها عن الأحياء .

ونتج عن إنشاء هذه الشبكة المائية في كل مكان من بغداد أن أحدثت البساتين والرياض والحدائق . وافتن البغداديون في اختيار مواقع حدائقهم ، وجعلها تشرف على مشاهد ومناظر طبيعية جميلة ، وانصرفوا إلى تعهد أنواع الغروس والأشجار ، وإلى رفع مياه الأنهار إليها بواسطة الدواليب ، حتى نشأ أسلوب عباسي في تنظيم الحدائق وتجميلها بمبتكرات الصناعات ، وتحويلها إلى أماكن راحة وأنس . ومن ذلك تزيين الأشجار وتلبيسها بالمعادن الثمينة ونشر الصور والتماثيل في أرجاء الحديقة . وقد كان (الجوسق المحدث) قصر المقتدر بالله في حي الرصافة يتصل بحديقة تحوي عدة ميادين غرست بأربعمائة نخلة ملبسة بالساج المنقوش ، ومحلقة بالنحاس المذهب . ويجري في هذه الميادين نهر رصاصي قلعي يمر على بركة مستطيلة طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً . وإلى جانب هذه الحديقة تقوم دار الشجرة التي تحوي في وسطها بركة

مدورة تقوم في مركزها شجرة قضبانها من ذهب وفضة ، وعليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة التي تصفر وتهدل . وعلى يمين البركة ويسارها تماثيل ثلاثين فارساً في أيديهم مطارد على رماح .

وشاع أنه نشأت بعض حدائق الحيوانات في الرصافة ، وجمعت فيها أصناف الوحوش ، وكان في قصر المقتدر بالله حير للوحش ، اعتادت الحيوانات التي جمعت فيه أن تقترب من الناس الذين يأتون للتفرج عليها ، وأن تتشممهم ، وتأكل من أيديهم .

ويستخلص مما ذكر أن فن العمران العربي الإسلامي اغتنى من تشييد بغداد بمكتسبات لا تحصى ، منها التخطيط ذو التفاصيل الدقيقة قبل المباشرة في التنفيذ ، ولحظ الوظائف العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحتاج إليها عاصمة كبرى ، والتنسيق بين هذه الوظائف والإشراف على تحديد الإطارات اللازمة لكل منها ، وعدم التردد في إجراء تعديلات أو تحويرات أو إدخال تحسينات في المشاريع عند تنفيذها ، وتدخل السلطات بالانفاق على المرافق العامة كبناء الأسوار والأقنية والمساجد ، ثم توفير مواد البناء على نطاق واسع للمباني العامة والخاصة .

٢ ـ الرقة ، وسامراء

وكان متوقعاً أن يمنح المنصور المدينة التي بناها سنة (١٥٥ هـ ـ ٧٧٢ م) إلى جانب مدينة الرقة القديمة الشامية على الفرات ، الشكل المدور الذي اختاره للهاشمية ولبغداد . وقد أطلق على هذه المدينة الجديدة اسم (الرافقة) ، وأقام فيها حامية عسكرية للدفاع عن سورية ضد الجيوش البيزنطية ، وجعل لها أسواراً وأبواباً وفصائل ورحبات تشبه ما تقدم وصفه في بغداد ، لهذا فإن الرافقة ـ الرقة أتت نسخة مصغرة عن دار السلام ، وما تزال أسوارها قائمة إلى زماننا الحاضر على الرغم مما طرأ عليها من انهيار واندثار . وتعطينا استدارتها غير التامة ، إذ ان طرفها الجنوبي مستقيم ، فكرة عما كانت عليه مدينتا

المنصور المدورتان الهاشمية وبغداد . وبقي أحد أبواب الرقة قائماً ويسمى (باب بغداد) كمثل جميل عن العمارة العباسية الآجرية .

ومن المؤسف أن المنشآت الحديثة اجتاحت كل أجزاء الفراغ المحصور ضمن سورها ، وأن الأمل فقد في التعرف على آثار المباني الحكومية التي شيدها المنصور فيها . وقد امتدت هذه المدينة خارج سورها خلال حكم خلفاء المنصور ، وخاصة في زمن الرشيد والمعتصم ، ونشأت فيها القصور والعمارات الأخرى التي تهدمت واندثرت أيضاً . واستخدمت المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية الصور الجوية التي أبانت كثافة هذه المنشآت ومدى اتساعها ، وقامت بسلسلة من التنقيبات الأثرية ابتداء من عام ١٩٥٠ ، فأظهرت هذه التنقيبات أربعة قصور أربى طول بعضها على ١٦٠ متراً ، ووجد أنها مقسمة ومنظمة وفقاً للأسس والمبادىء المعمارية والعمرانية التي اتبعت في قصور بغداد . وكانت المياه تصلها عن طريق قناة تمر بالقصور المشار إليها فتروي حدائقها الداخلية المحاطة بالأسوار ، والتي تتصل بقاعاتها وأبهائها الفسيحة .

واتبع الخلفاء العباسيون بعد المنصور التقاليد التي سنّها الخلفاء الأمويون في بلاد الشام ، وجعل كل منهم يشيد قصراً إظهاراً لسلطانه وتعزيزاً لشهرته ولم تصف المصادر التاريخية أوضاع هذه القصور . وأكبر الظن أن المقصود بالقصور مدن صغيرة تشبه تنظيماتها الداخلية ما كان يوجد من منشآت في مدينة المنصور المدورة ، دون أن يكون لها استدارتها . ومن ذلك قصر المهدي ، ثم دار الخلافة التي ورثها الرشيد عن جعفر البرمكي ، وكانت قائمة في الرصافة ، وقد أضيف إليها فيما بعد قصر التاج ، وقصر الفردوس ، كما ألحق المأمون بها حلبة لسباق الخيل ولألعاب الكرة والصولجان . ومنها أيضاً قصر المأمون وقد بناه قرب الحلبة المذكورة ، وأقطع أتباعه ومواليه أراضي ليبنوا عليها بيوتهم ، ثم قصر المعتصم الذي شيّده قرب قصر المأمون .

وبناء مدينة سامراء استمرار للتقاليد التي أشرنا إليها ، وتطوير للمخططات

العمرانية والمعمارية التي بدأت في بغداد . وباعتقادي أن الوقاية من الجنود الأجانب وخاصة الأتراك منهم الذين بدأ نفوذهم يشتد في الدولة ، لم يكن الباعث الرئيسي الذي دفع المعتصم لمفارقة بغداد سنة (٢٢١ هـ – ٨٣٦ م) ، والحلول في الشماصية ، وبردان وباحمشا ، والماطرة ، والقادسية ، ثم في سامراء بحثاً عن موقع صالح لبناء مدينة جديدة ، وإنما كان تحقيقاً لما يراود نفسه في أن تكون له في مضمار العمارة والعمران شهرة تعادل الشهرة العسكرية التي اكتسبتها جيوشه في حروبه مع البيزنطيين . ويؤيد ذلك أنه سبق تشييد سامراء تهيئة طويلة ، وقد استقدم المعتصم لذلك من أطراف أمبراطوريته الواسعة « من يعمل عملاً من الأعمال أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والغرس وهندسة الماء ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض » وأنه استجلب الخشب وخاصة الساج وجذوع النخيل من البصرة ، والمرمر من اللاذقية بعد أن أقام فيها مصانع لقطعه ونحته ، وأوفد مبعوثيه إلى مصر لينتزعوا الأعمدة من معابد الاسكندرية وكنائسها ، ونقل إلى سامراء باب عمورية الحديدي الذي غنمه منها بعد فتحها .

ويدل على ذلك أيضاً أن سامراء لم تزود بأية تحصينات عسكرية ، وأنه لم تتخذ فيها أية احتياطات لحماية الخليفة ، أو لعزل الجنود عن السكان الآخرين . ومهما كان الأمر فإن المعتصم لم يكن موفقاً في اختيار موقع مدينته الذي لم تكن فيه إلا قناة واحدة تعرف باسم (النهروان) ، وتمتد على شاطىء دجلة الشرقي فتروي بعض الأديرة والمنشآت الزراعية القديمة ، مما جعل إقامة شبكتي ري على الضفتين الشرقية والغربية لمدينة مثل المدينة التي يحلم المعتصم بإنشائها ، يتطلب جهوداً ضخمة ، ونفقات باهظة جداً .

وابتاع المعتصم أرض سامراء من رهبان أحد الأديرة ، وبدأ بناء المدينة على شاطىء دجلة الشرقي ، وفق مخطط وجهه بعناية ودقة ، وأقام المسجد الجامع في وسطها وجعل أمام هذا المسجد مساحة مربعة نظمت الأسواق على بعض أطرافها بعد أن خصصت بأصحاب المهن كما جرى ذلك في بغداد .

وبنى المعتصم في كل سوق مسجداً وحماماً ، وأقطع كل فئة من قواده وجنوده الفراغنة والايرانيين والأتراك والمغاربة والعرب أراضي ليبنوا قصورهم وبيوتهم عليها ، وشيّد لنفسه على شاطىء دجلة قصراً اسماه (الجوسق الخاقاني) على شكل رباعي مساحته ١٧٥ هكتاراً مربعاً ، منها ٧١ هكتاراً مربعاً للحدائق المشرفة على دجلة . ويبدأ (الجوسق الخاقاني) ببوابة مثلثة اسمها (باب العامة) كان الخليفة يستقبل الناس تحتها في يومي الاثنين والثلاثاء من كل أسبوع ، ووراء هذه البوابة ست قاعات كبرى ، وتلي القاعات مبان فيها عدد كبير من القاعات الصغيرة التي خصصت بأهل بيت الخليفة ، ثمّ باحة ضخمة مربعة ، في وسطها بركة واسعة ، وعلى كل طرف منها ثلاث قاعات ، ووراء القاعات الشمالية منها كانت تقوم قاعة العرش . وفي أطراف القصر الأخرى أقيمت مجمعات للجنود والخدم ، ثم ملعب للكرة والصولجان ، فحير للوحوش ، والخ . . .

وتتابع خلفاء المعتصم السبعة على سامراء ، وجهد كل خليفة في بناء قصر خاص به ، حتى أربى طول سامراء على الثلاثين كيلومتراً ، وامتدت عماراتها إلى شاطىء دجلة الغربي وكان أكثر هؤلاء الخلفاء نشاطاً في ذلك المتوكل على الله الذي هدم جامع المعتصم ، وأقام بدلاً عنه المسجد الكبير الذي ما تزال أنقاضه الآجرية ظاهرة حتى اليوم ، ويعد أكبر مسجد في العالم الإسلامي بأبعاده التي تبلغ ٢٤٠ متراً × ١٥٦ متراً ، ويشتهر بمنارته الملوية التي تشبه زقورة من الزقورات المعروفة في عمارة بلاد الرافدين القديمة ، ويبلغ ارتفاعها ٥٠ متراً فوق قاعدتها المربعة .

ثم أنشأ المتوكل بين سنتي (٢٤٠ – ٢٤٥ هـ) ، في جنوبي سامراء ، قصر بلكوارا المشهور وخصصه بابنه محمد المنتصر ، ثم انصرف إلى بناء قصره الذي أسماه الجعفرية إلى الشمال من قصر الجوسق ، وقد تعرف المنقب الألماني هيرزفيلد على اطلال هذين القصرين ، وبينت دراستهما أن القصر الأول كان آية من آيات العمارة العباسية ، وأن القصر الثاني كان يتألف من

مجموعة كبرى من المباني منها برج شاهق كان يحلو للخليفة الصعود إلى طابقه العلوي لمشاهدة ألعاب الكرة والصولجان وسباق الجياد ، وتأمل ما حول سامراء من مناظر .

وبنى المتوكل أيضاً مسجد أبي دلف في شمال الجعفرية ، وكان شبيهاً بالمسجد الكبير ، ثم انصرف إلى متابعة تجميل سامراء ، فوسّع قناة النهروان ، وجعلها تنفذ إلى وسط المدينة ، ونظم الشارع الأعظم الذي يخترقها من الشمال إلى الجنوب على طول ١١ كيلو متراً ، وبعرض بلغ في بعض أقسامه نحو ٧٠ متراً ، متعامداً مع عدد من الشوارع المتوازية . وأقام على كل من طرفيه قناة شيدت القصور والمساكن حولها ، ومَدَّ جسراً بين ضفتي دجلة ، وبدأ بشق قناة كبيرة في الضفة الغربية ، ساعدت على إنشاء المزارع والحدائق والبساتين ونشرها .

وكان من الصعب على الخلفاء الذين أتوا بعد المتوكل أن يتابعوا سياسته العمرانية في سامراء ، لا لكثرة النفقات التي تتطلبها فحسب ، بل لتبين استحالة تحويل القصور الملكية والأميرية إلى جسم متماسك . لأن هذه القصور كانت محاطة بأسوار مرتفعة تعزلها عن بعضها ، ولا تقيم بينها روابط من شأنها أن تمرر بينها تيارات الحياة الطبيعية المدنية .

والخلاصة لم تفشل تجربة سامراء التي أنهتها عودة الخليفة المعتمد إلى بغداد . فقد زودت الفن العمراني العربي بمكتسبات جديدة منها : تأثير عمراني جماعي تحدثه مبانٍ ضخمة مجتمعة في رقعة من الأرض ، وتنسيق حجوم هذه المباني ، وتنظيم بعضها بالنسبة إلى بعضها الآخر ، وإيجاد صفات مشتركة بينها كالبوابات المثلثة التي تشرف على ساحات عامة تتصل بشوارع ضخمة لم يعرف العصر الوسيط لها مثيلاً ، ثم التفنن في تنويع العناصر التي تتألف منها الحديقة ، وما يتبعها من حير الوحش وحلبة السباق . أما العمارة العربية التي كانت أداة هذا الفن العمراني الجديد ، فقد تمثلت كل صفات البناء الطوب

والآجر والحجر والمرمر ، وعرفت التزيين بالجص والخشب والبرونز والفضة والذهب ، وبرعت في الاستفادة من المواقع والمشاهد والمناظر الطبيعية ، وألفت إنشاء البرك والبحرات والفساقي ، وافتنت في سوق المياه إلى الرياض وتنظيم الفوارات الاصطناعية ، التي تمج المياه البلورية ، وأصبح ميسوراً عليها استخدام كل هذه الإمكانيات في المجمعات المدنية والعسكرية التي حققت في سامراء أكبر توسع أفقي في عشرات المباني ، زادت أطوال كل منها عن ٢٠٠ متر ، وأكبر توسع شاقولي في مبان أخرى أربت ارتفاعاتها على ٥٠ متراً .

هـ ـ المدن في الأقطار العربية الإسلامية الأخرى

واستفادت المدن العربية الاسلامية الجديدة أو التي وجب تجديدها أو تطوير إطاراتها القديمة ، من التجارب الأموية والعباسية . ونحن ذاكرون فيما يلي مثلين عن التطور العمراني الذي عرفته مصر ، والتطور الذي طرأ على المدن الليبية ، خلال العصور الاسلامية الأولى ، تاركين معالجة المدن الإسلامية في بقية أقطار افريقيا الشمالية وإسبانيا وصقلية إلى فرصة أخرى .

١ ـ المدينة العباسية المصرية

ويمكن متابعة تطور المدينة العربية الاسلامية المصرية في مدينة الفسطاط التي جرى الحديث عنها سابقاً . وقد استمر نمو هذه المدينة دون أن يتأثر من قيام مدينة القطائع التي شيّدها إلى جانبها الحاكم العباسي أحمد بن طولون ، وكان من أصل تركي ، سنة (٢٠٠ هـ ـ ٨١٥ م) لكي ينافس سامراء بالشهرة وذيوع الصيت . وامتدت القطائع شرقي قلعة القاهرة الحالية في موقع يشرف الناظر منه على الصحراء والنيل وجبل المقطم ومدينة الفسطاط .

وبدأ أحمد بن طولون عمله ببناء المسجد الجامع الذي عرف باسمه ، وما زال إلى الآن قائماً بعمارته الرائعة التي أريد منها احتذاء نماذج المساجد العباسية في البصرة والكوفة وواسط وبغداد ، وخاصة المسجد الكبير ومسجد أبي دُلف

في سامراء . وجعل ابن طولون إلى جانب مسجده ، دار الأمارة ، ثم قصراً ألحق به حلبة للسباق ولألعاب الكرة والصولجان ، وأقطع كما كان يفعل الخلفاء العباسيون قواده ، وجنده القطائع ليبنوا عليها قصورهم وبيوتهم ، وساق الماء من نهر النيل في قناة جعلت على قناطر ، وما تزال أجزاء منها ترى في موقع (البساتين) الحالي .

ولما استعاد العباسيون سلطتهم على مصر ، هدموا جميع منشآت أحمد بن طولون ما عدا المسجد الجامع . وليس لدينا إلا المصادر التاريخية للتعرف على المنشآت التي هدمت . ونكتفي في هذا المقام بالتحدث عن البستان الذي نظمه خمارويه بن أحمد بن طولون في قصره، وبلط أرضه ، وشقّ فيها الجداول ، ووزع في أرجائها الفساقي ، وجلب روائع الزهر من خراسان ، وغرس البستان بأنواع الورد والزعفران ، والرياحين ، على أشكال نقوش معمولة وكتابات مكتوبة ، بعضها آيات قرآنية كان يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة . وعمل خمارويه على تنسيق أشجار النخيل ، وأمر أن تكسى بالنحاس المذهب ، كما فعل العباسيون في حدائقهم ، وزاد عليها بأن جعل ميازيب الرصاص بين النحاس المذهب وأجساد النخيل ليجري فيها الماء ، وينحدر في الفساقي .

وملىء الرواق المؤدي إلى مجلس خمارويه في هذا البستان ، بصور جدارية معمولة على صورته وصور حظاياه ومغنياته وهن مزينات بالأكاليل ، على ارتفاع قامة ونصف . وأضيفت إلى كل ذلك قبة عالية أقيمت في البستان فوق فسقية طولها خمسون ذراعاً ، وملئت بالزئبق ، وجعل في الزئبق فرش لخمارويه كان ينام عليه فيتحرك بحركة الزئبق ، كما يظهر أنه كان يوجد في البستان حير للوحوش ، وبرج للطيور نظمت فيه أوكار لأصناف القماري والدباسي والنونيات والطواويس والدجاج الحبشي ، الخ . . .

أما مدينة الفسطاط فقد كانت تتابع حياتها العاملة بعيدة عن كل هذا الترف ، وتتحول تدريجياً إلى مدينة صناعية وتجارية هامة ، مهيئة السبل

للقاهرة ، التي بنيت بعد زوال القطائع ، حتى تصبح حاضرة للعالم العربي بعد انحطاط بغداد وانتقال الخلافة إليها . وتجدر الإشارة إلى أن الفسطاط توصلت آنئذ لأن تصبح مرفأ دولياً كبيراً تباع في أسواقه البضائع التي تحمل من الأندلس ومن الصين ، ويعمل في مصانعه الحديد والنحاس والصابون والزجاج والورق والمنسوجات والفخار .

ودلت الحفائر الأثرية التي أجراها في أرضها ، المنقبان (علي بهجت) المصري و (ألبير جابرييل) الافرنسي سنة ١٩٠٠ والسنوات التي تلتها ، والتي تابعها المنقب (سكانلون) الأميريكي سنة ١٩٦٥ ، على أن مبانيها على الرغم من ضيق شوارعها المجتمعة حول مسجد عمرو بن العاص ، كانت ترتفع أحياناً من خمسة إلى سبعة طوابق وأحياناً إلى خمسة عشر طابقاً .

وقد تحققت هذه الانجازات التي أغنت عمارة المدينة العربية الإسلامية بتنظيمات جديدة ، بفضل أرض الفسطاط الصخرية ، وبراعة المهندسين المصريين المسلمين بالبناء على أعمدة حجرية رملية يجعلونها في تراكيب جدران مبانيهم واستخدامهم بلاطاً جصياً قوياً جداً مستخرجاً من موقع مدينتهم ، واستنباطهم الماء بين أرضها الصلبة ، وتنظيمهم لشبكات من الآبار التي تتصل ببعضها عن طريق أقنية وتنقل الماء الصالح للشرب على حدة بعد تصفيته ، أو الماء المستعمل في شتى الأغراض ، إلى حي أو جملة أحياء . ومن اللازم أن يشار أن شبكات الفسطاط المائية كانت فريدة في حياة المدن خلال العصر الوسيط .

٢ – المدن الليبية في العصور الإسلامية الأولى :

وتذهل السرعة التي تمّ بها استيلاء عمرو بن العاص على المدن البرقاوية الخمس والطرابلسية الثلاث ووصول عقبة بن نافع إلى مدن الفزان . وقد نشأ عن هذا التحول في حياة ليبيا أن أصبحت قلب العالم الاسلامي ومرحلة هامة

للاتصال بين مصر وبين المغرب والأندلس ، مما أكسبها إلى أهميتها القديمة أهمية جديدة كقاعدة لتصريف التجارة بين الأقطار الاسلامية الشرقية وبين الأقطار الإسلامية الغربية .

وأدى هذا النشاط إلى ازدهار مدنها خلال القرون الاسلامية الأولى . وعلى الرغم من فقدان الأبحاث العلمية حول تحول مدنها الاغريقية ـ الرومانية إلى مدن عربية إسلامية ، فإن كثيراً من الدلائل تشير إلى أن هذا التحول كان يسير وفقاً للمبادىء العمرانية الأموية والعباسية مباشرة ، أو وفقاً للتطورات التي طرأت على تلك المبادىء إثر تجارب الفسطاط والقيروان وتونس والمهدية وغيرها .

والمدن الليبية في العصور الإسلامية الأولى نوعان : مدن إسلامية حلّت في مدن اغريقية ورومانية ، أصيبت بالضعف والوهن ، فراحت تتجدد وتتحول تدريجياً ، ومدن حديثة نشأت في مواقع ملائمة على طريق التجارة الدولية الذي يقطع ليبيا من الشرق إلى الغرب .

ومن المدن الإسلامية الليبية الأولى (برقة) التي أصبحت مقر الحكم ، وكان هذا المقر في سوسة خلال العهد البيزنطي المتأخر . وكان لبرقة من موقعها الداخلي ما يجعلها بمأمن من هجمات الأساطيل البيزنطية ، ويهيئها لأن تكون محطة رئيسية على طريق الفسطاط القيروان وعلى الطريق الذي يصل الساحل بالواحات الداخلية . وقد اشتهرت برقة بأسواقها التي تخصصت بالجلود والأصواف والعسل والشمع والزيت والفلفل ، وبتربية المواشي التي كانت تصدر إلى مصر . ومن المأمول أن تجري في موقعها (موقع مدينة المرج القديمة) حفائر أثرية لإظهار معالم منشآتها الإسلامية الأولى ولإغناء مجموعة الأعمدة المرمرية المنقوشة بكتابات كوفية والتي وجدت فيها منذ عدة سنوات ، بعناصر معمارية أخرى ، وبآثار منقولة مختلفة .

وكما ازدادت أهمية برقة بوجود قبر واليها الصحابي (رويفع) الذي ظل

قائماً إلى زمن المؤرخ البكري ، ازدادت أهمية مدينة درنة (درنيس القديمة) باحتوائها على قبور زهير بن قيس وصحبه الذين استشهدوا في أرضها . ولا يعرف شيء هام عن العصور الإسلامية الأولى التي مرت على هذه المدينة الذي ينسجم موقعها مع ما كان يختار العرب لمدنهم الجديدة من مواقع ، إذ تنتشر حولها البساتين الخضراء المنتجة لمختلف أشجار الفاكهة وتكثر العيون ويتألف بقربها نهر صغير يحمل الماء إلى بيوتها التي تتخللها أسواق متخصصة تجتمع بعضها حول مسجدها الرائع المشيد في أزمنة متأخرة .

ومن المدن الليبية الجديدة التي أنشأها المسلمون (أجدابيا) في موقع يحوي آباراً غزيرة المياه ، ويصلح لكي يكون محطة أخرى للتيارات الاسلامية التجارية الشرقية الغربية . وقد أيدت الحفائر الأثرية التي قامت بها مصلحة الآثار بمساعدة بعض البعثات الأجنبية منذ سنة ١٩٥٢ في أجدابيا بعض ما ذكره عنها المؤرخون كاليعقوبي وابن حوقل وأبي الفداء والمقدسي والادريسي والبكري ، من أنها كانت مدينة مزدهرة محاطة بالأسوار المحصنة ، ومبنية بالآجر والحجر ، وأنه كان فيها مسجد حسن بناه أبو القاسم بن عبيد الله ثاني الخلفاء الفاطميين ، وحمامات وأسواق تجارية ، وأن سكانها من أهل البلاد كانوا يعيشون داخل سورها وخارجه حول بساتينها .

وقد كشف عن مسجدها الكبير الذي يبلغ طوله ٦٧ متراً وعرضه ٣١ متراً ، ويشبه بتخطيطه وتراكيبه وزخارفه الجصية الجوامع الشامية العراقية الأولى . وتدل معالمه على أنه حوِّل ورمم أكثر من مرة . كما وُجِدت إلى الشرق من هذا المسجد وعلى بعد مائتين وخمسين متراً منه ، بقايا قصر مستطيل الشكل يشبه بحجومه الخارجية والداخلية ، وتحصينات زواياه ، وتوزيع قاعاته حول باحة مركزية ، قصور الأمويين في بادية الشام التي تحدثنا عنها . ويستغرب بعد القصر عن المسجد . وكنا أشرنا إلى أن المسجد ودار الأمارة كانا متجاورين في المدينة الإسلامية الأولى . ولا يدرى إذا كان يوجد قصر ثان في منطقة المسجد التي لم يتم الكشف عنها . ويستحسن أن توجه الأعمال الأثرية خلال

الأعوام المقبلة لإيضاح هذه القضية ، ولإظهار مخلفات الأسواق التي اشتهرت بها أجدابيا ، وكذلك إلى دراسة المساكن التي تم العثور عليها خلال العام الفائت ، ومقارنتها بما هو معروف من آثار العمارات الإسلامية الخاصة التي يرقى عهدها إلى زمن ازدهار أجدابيا .

وتقوم مصلحة الآثار الليبية مشكورة منذ سنة ١٩٦٣ بالتنقيب في أطلال مدينة إسلامية أخرى من العصور الإسلامية الأولى ، وهي مدينة سلطان (السرت القديمة) الواقعة غير بعيد إلى الشرق من مدينة (السرت الحالية) . وتم التعرف على أسوارها الممتدة أمام مينائها القديم التي يبلغ طولها ١٦٥٠ متراً وعرضها ١,٦٠ متراً . وهي مبنية بأحجار غير منتظمة ومدعومة بدعامات خارجية بارزة ، وفيها ثلاثة أبواب ، ولها ثلاثة حصون منيعة ، وجرى الكشف عن مسجد المدينة وهو بناء كبير ، ابعاده : (٣١ × ٤١ متراً) ، وتحيط المجنبات ، بصحنه المبلط والمتصل بالحرم خمسة أبواب سد منها ثلاثة ، ويتصف الحرم بأبهائه الثلاثة وبمحرابه وبتزييناته الجصية . وأكبر الظن أن هذه المدينة معاصرة لأجدابيا ، ويرجى أن تؤدي الحفريات المقبلة إلى إظهار شوارعها وأسواقها ومبانيها العامة والخاصة ، وذلك على ضوء الأخبار التي رواها عنها المؤرخون وخاصة البكري ، وعلى ما أوضحته عنها الصور الجوية التي أخذت لها .

وطرابلس مثل آخر عن المدينة الاسلامية الليبية الأولى ، ويختص تطورها بأنها تربعت كدمشق وحلب والإسكندرية وبرقة وغيرها في إطارات مدينة كلاسيكية . ويرقى اسمها (أويه) القديم إلى الفينيقيين الذين كانوا بناتها الأول . وقد تجددت منشآتها واكتسبت مخططها المتعامد مثل لبدة وصبراتا في العهد الروماني . والمعتقد أن أهميتها زادت عن أهمية جارتيها المذكورتين واللتين انحط شأنهما خلال الأزمنة البيزنطية . ويقال إن عدد سكانها كان يبلغ ٧٠٠٠ نسمة في عهد الفتح العربي . وقد استولى عليها عمرو بن العاص سنة ٦٤٢,٣ ميلادية ، وهدم سورها الشمالي ، وأمر ببناء مسجد فيها ، ومن

المساجد القديمة الطرابلسية جامع مبرك الناقة الذي تختلف المصادر التاريخية في نسبته إلى عمرو بن العاص أو إلى المعز لدين الله الفاطمي .

ويهمنا في طرابلس خاصة أسوارها التي سعت العهود الإسلامية الأولى لتوفير المناعة لها ولجعلها قاعدة للدفاع عن أفريقيا ، شأن أكثر المدن الليبية الساحلية . وقد اكتسبت هذه الأسوار شكلاً شبيهاً بالمثلث ، وحافظت على تخطيطها الجنوبي والغربي الذي كان لها إبان الفتح العربي ، وأعيد إنشاء ما هدمه عمرو بن العاص بعد تضييق مساحته ، عدة مرات في منتصف القرن الثامن وفي آخره وخلال القرن العاشر الميلادي لمقاومة هجمات الأسطول البيزنطي وجعل لسور طرابلس فصيل ، تباعاً لأصول التحصينات العسكرية التي وفرت لمدينة بغداد المدورة .

ويظن أن مساحة المدينة ظلت تتراوح خلال الأزمنة التي أشرنا إليها ، بين أربعة وأربعين وبين خمسين هكتاراً ، وظلت طرابلس محافظة عليها حتى عهد درغوث باشا .

واشتهرت المدينة أيضاً بمينائها ، ويتحدث عنه البكري والتيجاني ويصفان سعته ، ويتحدثان عن المراكب التي كانت ترسو قرب شاطئه . ومن الجدير بالذكر أن التيجاني أقام في طرابلس ثمانية عشر شهراً ووصف وصف خبير شوارعها المستقيمة والعريضة التي تقطعها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب وامتدح ساحاتها وميادينها وبساتينها ومبانيها البيضاء وبيوتها التي لا يخلو بيت منها من نخلة أو شجرة تين .

ولا شك أن تنظيم طرابلس ظل يتبع في العصور الإسلامية الأولى خصائص مخططها المتعامد القديم ، إلا أن هذا التنظيم احتذى خاصة المبادىء العمرانية التي وضعها الأغالبة والحفصيون في القيروان وتونس بعد أن طوروا المبادىء العمرانية الشامية والعراقية ، متوخين تزويد المجمعات المدنية الافريقية برقعات منتظمة وشوارع عريضة ، وتوفير المياه إلى كل مسكن من مساكنها .

مصادر مختصرة للبحث :

1) G.E. von Grunebaum, « The Structure of the Muslim Town » in Islam (The American Anthropologist), Menasha (Wisconsin), 1955.

2) R. Brunschvig, « Urbanisme médievol et droit musulman » dans Revue des Etudes islamiques, 1947.

3) E. Pauty, « villes spontannées et villes créées en Islam », dans (Annales de l'Institut d'études orientales), IX, 1951,

(٤) مقالات في دائرة المعارف الاسلامية ، عن بغداد ، والبصرة ، ودمشق ، والكوفة ، والمرج ، الخ . . .

(٥) كتابان صادران عن (دمشق وحلب تأليف : Jean Sauvager
Alep, Paris, 1941, Esquisse d'une histoire de Damas, des Etudes islamiques, 1934.

(٦) علي بهجت وألبير جابرييل ، حفريات الفسطاط ، القاهرة ، ١٩٢٨ .

(٧) كمال الدين سامح ، القصور والدور في مصر من الفتح الاسلامي حتى بداية عصر المماليك (مجلة المهندسين ، ١٩٥١) .

(٨) كمال الدين سامح العمارة الإسلامية في مصر ، القاهرة

(٩) فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الإسلامية ، عصر الولاة ، المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

11) K.A.C. Creswell, Early Muslim architecture, 4 vol., Oxford, 1932 - 1968.

(١٠) سليم عبد الحق ، مشاهد دمشق الأثرية ، دمشق ، ١٩٥٢
سليم عبد الحق ، إعادة تشييد قصر الحير في متحف دمشق ، مجلة الحوليات الأثرية ، العدد الأول
سليم عبد الحق ، فن الحدائق عند العرب ، مجلة الحوليات الأثرية ،
سليم عبد الحق ، مدينة بغداد المدورة ، مجلة الحوليات الأثرية ،

13) D. et J. Sourdel, la civilisation de l'Islam classique, Paris, 1968.

14) The Islamic City, Editions A. Hourani and S.M. Stern, Oxford, England, 1971.

15) R. Martin, l'Urbanisme dans Ca Grêce classique.

16) P. Ladan, l'histoire de l'urbanisme, 1er vol. Paris.

(١١) عدة مقالات عن حفريات أجدابيا وسلطان في أعداد مجلة ليبيا القديمة .

18) Art and Archacology Research Papers, April 1976, 102 st. Paul's Road, London N. 1.

19) Islamic Art And Architecture In Libya, published by the Architectural Association, London, April 1976.